الثقافة الإسلامية

(٢٦)

المذهب التاريخي

في القرآن الكريم

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٢٦ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... المذهب التاريخي في القرآن الكريم
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّــرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

الرعد/ ١١

فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ: علم حديث بالمعنى المنهجي المطروح اليوم في الثقافة المعاصرة. وله جذور واصول معروفة واضحة في التاريخ العقلي الاسلامي، ولعل ابن خلدون ابرز من كتب فيه.

هذا العلم يعنى باكتشاف القوانين الحاكمة على التاريخ، لتقنينه واكتشاف العلاقة بين حوادثه.

ولئن كان هذا العلم أمراً جديداً، في الثقافة الإنسانية، فإننا نجد أن القرآن الكريم يطرح أفكاراً، وآراءً، وقوانين محدّدة، في هذا المجال، ومن الممكن تجميع هذه الأفكار، والتصورات، والقوانين وتنظيمها واستخراج المذهب القرآني في التاريخ منها.

تمهيد

في تفسير وفهم التاريخ أمامنا ثلاث اتجاهات علمية معاصرة نقف وقفة قصيرة عند كل واحد منها، ليتسنى لنا الانطلاق منها - في هذا التمهيد - إلى معرفة المذهب التاريخي في القرآن.

الاتجاه الأول: ينفي إمكان تفسير التاريخ، على أساس قانون العليّة، وينفي وجود الحتمية العليّة في التاريخ بالقوة والوضوح اللذين نجدهما في الفيزياء والميكانيك - مثلا - من دون أن ينفي أصحاب هذا الاتجاه قانون العلية رأساً في التاريخ.

وإنما يعتقدون أن حضور (إرادة الإنسان) في ساحة الحضارة والتاريخ، بما تمتلك هذه الإرادة، من حرية القرار، والاختيار، يحدّد دور قانون العليّة، ويقلل من حجم الحتميّة والتعميم، في مساحة التاريخ.

الاتجاه الثاني: يفسر أحداث التاريخ بنفس الطريقة التي يفسر بها عالم الفيزياء والميكانيك قضايا الفيزياء والميكانيك، ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه، أن الحتمية العليّة تحكم التاريخ، كما تحكم الفيزياء، وبنفس الوضوح والقوة.

الاتجاه الثالث: يعترف بحضور وحاكمية إرادة الإنسان في التاريخ، كما يعترف بحاكمية قانون العليّة في التاريخ، ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه إننا يمكن أن نفهم التاريخ، من خلال هذين العاملين معاً، دون أن يقلل أحدهما من قيمة الآخر... دون أن يأخذوا بنظر الإعتبار دور الرعاية الإلهية

للتاريخ والإنسان.
وإليك تفصيل هذه الاتجاهات:

الاتجاه الأول:
أصحاب هذا الإتجاه ينفون علاقة العليّة والسّببية في حركة التاريخ، ويعتقدون أن من غير الممكن أن يخضع الحدث التاريخي والحضاري والاجتماعي لقانون العليّة، بنفس الطريقة التي تخضع لها قضية فيزياوية أو ميكانيكية لقانون العليّة، بما في هذا القانون من الحتمية والتعميم.

ففي حقل الفيزياء، يمكننا أن نعمم نتائج كل تجربة في ظروف وأسباب مشابهة، على امتداد المكان والزمان، كما يمكننا أن نحكم بحتمية هذه النتائج في الظروف المشابهة، فحين يثبت لنا بالتجربة غليان الماء، عندما ترتفع درجة الحرارة إلى مائة درجة مئوية عند مستوى البحر، لنا أن نعمّم نتيجة هذه التجربة، على الحالات المشابهة الأُخرى، كما يصحّ أن نحكم بحتمية هذه الحالة (الغليان) في الحالات المتشابهة.

وهذان الأصلان (الحتمية والتعميم) تابعان لقانون العليّة، في الفيزياء والميكانيك، كما في سائر العلوم المادية

التجريبية.

أما في مساحة الحضارة، والمجتمع، والتاريخ... فلا يمكن أن نحكم بجريان قانون العليّة بنفس القوة والوضوح، وذلك لأن حضور العنصر الإنساني، في مساحة التاريخ، وحريّة إرادة الإنسان، وحرية اختياره وقراره يحدّد دور قانون العليّة، ويقلل من قيمته في حركة التاريخ، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نفهم التاريخ بصورة واضحة، بموجب قانون العليّة، كما نفهمه في الفيزياء مثلا، ولا يمكن أن نتنبأ بالمستقبل، ونكتشف مجاهيل التاريخ، بموجب قانون العليّة، كما نفهم ذلك في الميكانيك والفيزياء، والكيمياء وذلك لأن التاريخ مسرح واسع لحركة الإنسان، وحرية إرادته، وقراره وهذا ما يجعل للتاريخ صفة متميزة وخاصة.

يقول كارل د. بوبر في كتابه « The poverty of Historicism»: «إن النظرية القائلة بأننا نستطيع أن نأخذ التعميم من الفيزياء، ونستعمله في التاريخ، والحضارة، والاجتماع تؤدي إلى نفي حركة التكامل في المجتمع»[١].

---

(١) الترجمة الفارسية، أحمد آرام، ص: ١٨.

ثم يقول في موضع آخر من كتابه:

«والفيزياء تستفيد من التجربة، وعن طريق التجربة يستطيع هذا العلم أن يعرف طريقة إيجاد الحالات المتشابهة من الأوضاع المتشابهة، وواضح أن ذلك يتوقف على الفكرة التالية: في الأوضاع والظروف المتشابهة تتكون الظواهر المشابهة».

يقول أصحاب المذهب التاريخي أن هذه الطريقة لا يمكن الإستفادة منها في علم الاجتماع، وعلى فرض إمكانية تطبيق هذه القاعدة (التجربة) في دورة خاصة، فلا يمكن نقل التجربة من دورة إلى دورة أخرى»[1].

ويقول «أدوارد هالت كار» في التعليق على نظريتي توينبي واشبنكلر:

تعتمد نظرية إشبنكلر وتوينبي على أساس وحدة التاريخ والعلم (يقصد العلوم الطبيعية القائمة على التجربة والتعميم)... وهذه الوحدة بين التاريخ والعلم وحدة كاذبة، ولا أساس لها من الصحة، ولا يمكن إجراء الأحكام التي تجري في العلم

---

(١) المصدر السابق.

(العلوم الطبيعية) على التاريخ بشكل دقيق. . فإن الظاهرة العلمية تتكرر، كلما تكررت نفس الظروف، وذلك لأن العناصر التي تتكون منها الظاهرة العلمية (الطبيعية) عناصر فاقدة للإرادة والشعور تجاه الماضي والعناصر الأخرى... بعكس الظاهرة التاريخية، فإن العناصر التي تتكون منها هذه الظاهرة تتمتع بالشعور والإرادة، هذه العناصر تعرف نهاية الدورة من بدايتها، فلا يمكن أن تتكرر الدورة السابقة[١].

والمحصل من استقراء أطراف هذه النظرية أن القائلين بها ينفون حاكمية مبدأ العليّة، في حركة التاريخ، بالشكل التفصيلي والدقيق الذي يجري بموجبه هذا المبدأ، في حقول الفيزياء، والميكانيك، وسائر العلوم التجريبية، وينفون إمكانية التنبؤ بأحداث التاريخ والمستقبل، كما نتنبأ نحن بأوضاع الكواكب، والنجوم، والشمس، والقمر مثلا... والسبب في ذلك هو وجود العنصر الإنساني في مجرى التاريخ، والتعقيدات التي ترافق حضور الإنسان في حركة التاريخ،

---

(١) المجتمع الجديد - إدوارد هالت كار - ص: ١١. ترجمة محسن تلاش.

مما يجعل تطبيق قانون العليّة والتنبؤ بالأحداث المستقبلية بموجب هذا القانون عسيراً جداً[١].

الاتجاه الثاني:

الاتجاه الثاني يتجه باتجاه معاكس للاتجاه الأول، ويؤمن بأن التاريخ ليس بدعاً من أُمور هذا الكون، ويخضع لقانون العلية والسببية بالدقة، كما يخضع سائر الأشياء في حقل الفيزياء، ويجري فيها التعميم والحتمية، كما يجري في الفيزياء والعلوم التجريبية الأخرى.

وحركة التاريخ، في هذه النظرية، لا تزيد على الآلية التي يتحكم فيها قانون العليّة بشكل مطلق، ولا يوجد ثمة عامل آخر غير عامل الحتمية العلية والتعميم، وعجلة التاريخ تتحرك كما تتحرك عجلة أي جهاز ميكانيكي، بموجب قوانين حتمية، ويجري اصل التعميم والحتمية في حقل الحياة الاجتماعية والتاريخ، كما يجري في حقل الميكانيك...

---

(١) ولا يعني ذلك أنهم ينكرون أصل العلية، في الحدث التاريخي، وإنما يعتقدون أن طريقة عمل قانون العلية في الحضارة والتاريخ تختلف عنها في الفيزياء والميكانيك.

ونلاحظ في هذا التصور غياب العنصر الإنساني، وإرادته، وحريته، واختياره بشكل كامل، فإن الإنسان يجري ضمن هذا الجهاز الواسع بصورة آلية، دون أن يملك اختياراً لنفسه في الحركة والسكون، ودون أن يملك إرادة في تقرير مصيره.

إن الإنسان، في هذه النظرية، يتحرك ويجري بموجب قوانين حتمية، دون أن يستطيع التحكم فيها، أو يستخدم إرادته ضمنها.

ومن رواد هذه النظرية، في الغرب «مونتسكيو» مؤلف كتاب (روح القوانين) «وإشبنكلر» في كتابه الكبير[١] عن تدهور الحضارة الغربية و«توينبي» في كتابه (مطالعة في التاريخ).

يقول «إدوارد هالت كار» في كتابه المجتمع الجديد[٢] في شرح هذه النظرية:

---

(١) ترجمه إلى العربية أحمد الشيباني.

(٢) المجتمع الجديد - إدوارد هالت كار -: ٩-١٢. من الترجمة الفارسية محسن تلاش.

«هناك صلة مباشرة، وعلاقة قوية بين الماضي والحاضر، على أساس التأثير والتأثر، والفعل والإنفعال، ولا يمكن فصل الماضي عن الحاضر والمستقبل، ونحن مدينون، في هذا التصور الجديد للتاريخ، للاتجاه العلمي الجديد الذي يبحث في العلوم، عن القوانين، والأصول القابلة للتعميم».

يقول: «مونتسيكو» في مقدمة كتابه (روح القوانين):

«أنا في هذا الكتاب شرحت الأصول فقط، ولاحظت مواضيع كثيرة تنطبق بصورة تلقائية على هذه الأصول... ومن هذا الانطباق القهري اكتشفتُ أن التاريخ ليس إلاّ مُعطيات ونتائج هذه الأصول والقوانين».

ثم يقول «أدوارد هالت كار» بعد ذلك:

«كان إشبنكلر يعتقد بأن الحضارة الإنسانية تتبع بصورة دقيقة قوانين العليّة السببية وتخضع لها... وهذه القوانين التي تقرر بصورة دقيقة مصير الحضارة والبشرية، والنظام الذي يتبعه إشبنكلر في استدلاله من الاستحكام والقوة بمكان لا يمكن رفضه والتشكيك فيه، في حدود المباني التي يتبعها

صاحب النظرية»[١].

ومن هذا المنطلق يمكن التنبؤ بالمستقبل، وحركة التاريخ والحضارة.

والماركسية وإن لم تكن تؤمن بقانون العلية، بالشكل الذي نؤمن به نحن في الفلسفة، لكنها تؤمن بهذا القانون، على طريقة جديدة هي طريقة (الإطروحة والطباق والتركيب) إلا أنها تنتهي إلى نفس النتيجة، من إمكان التنبؤ بالمستقبل، وفهم مستقبل الحضارة، من خلال قانون التناقض والصراع الطبقي، وقد حدد «ماركس» المراحل الخمسة للتاريخ من خلال هذا التصور للتاريخ (قانون (الأطروحة والطباق والتركيب) وتكتسب المراحل الخمسة في هذه النظرية الصفة الحتمية، وهي التي يطلق عليها عادة في هذه المدارس الفلسفية بـ (الحتمية التاريخية).

---

(١) المجتمع الجديد - إدوارد هالت كار - ترجمة محسن تلاش ص:١٠.

المذهب التاريخي عند دوركهايم:

ومن العلماء الذين يذهبون إلى الحتمية التاريخية، في حركة التاريخ، ويؤمنون بحاكمية المجتمع الحتمية، على حياة الفرد، وعدم قدرة الفرد على الإنفلات من سلطان المجتمع، هو «آميل دوركهايم» العالم الإجتماعي الفرنسي الشهير... فهو يؤمن بأن الشؤون الاجتماعية من معطيات الحياة الاجتماعية، وليست حصيلة فكر وإرادة الأفراد.

يقول دوركهايم: بأن الشؤون الاجتماعية ذات ثلاث خصال دائماً، وهي الخارجية - والحتمية - والتعميم، فهي (خارجية) لأنها تُفرض على الفرد (من المجتمع)، وهي موجودة في المجتمع قبل وجود الفرد، ويتقبل الفرد هذه المعطيات الاجتماعية ويستقبلها بتأثير المجتمع... والعادات، والأعراف، والتقاليد، والأخلاق الاجتماعية من جملة هذه الأمور.

وهي (حتمية) لأنها تفرض على الفرد فرضا، ولا يملك الفرد الخيار في قبولها ورفضها، وتطبع ضمائر، وأحاسيس ومشاعر، وعواطف، وأفكار، وتصورات الأفراد بطابعها الخاص.

وهي (عمومية) لأنها تنطبق على كل الأفراد، في الظروف والحالات المتشابهة[١].

يقول «أنتوني كيد نز» في دراسته الجديدة عن «دوركهايم»:

«من الملاحظات التي أوردها الأساتذة الذين ناقشوا رسالة دوركهايم للدكتوراه أن «دوركهايم» يعتبر العامل الاجتماعي هو العامل الوحيد لتكامل الأخلاق...

والمجتمع عند «دوركهايم» جزء من الطبيعة، فلابدّ أن يخضع علم الاجتماع لنفس الأصول التي تخضع لها العلوم الطبيعية.

ويقول «دوركهايم» في رسالته للدكتوراه، عن «مونتسكيو»: إذا كان «كنت» استطاع أن يتجاوز معطيات عصره والمتقدمين عليه من العلماء... فلم يكن يتيسر بعد «لمونتسكيو» شيء جديد في هذا الحقل إلاّ القول بأن القوانين الحاكمة على المجتمع لا تختلف عن القوانين

(١) المدخل إلى التصور الإسلامي قسم المجتمع والتاريخ للشهيد المطهري ص: ٣٢٩- ٣٣٠. الأصل الفارسي.

الحاكمة على الطبيعية، ولا تختلف طريقة اكتشاف القوانين الاجتماعية عن طريقة إكتشاف القوانين الطبيعية في الطبيعة...»[١].

ويبلُغ «دوركهايم» أقصى ما يمكن أن يقال، بهذا الصدد، فيقول:

«إن القضايا الاجتماعية ما هي إلاّ «أشياء»: «Things» ولربما يكون هذا المعنى هو أكثر المفاهيم التي طرحها «دوركهايم» في كتابه «قواعد علم الاجتماع» إثارة للنقاش والجدل.

واعتبار القضايا الاجتماعية «أشياء» بمعنى أن تجريدها الكامل... أمر لابد منه، يعني نحن نستطيع أن نفهم القضايا الاجتماعية مستقلة عن كل فرد، ونستطيع أن نخضع المجتمع لدراسة موضوعية، فإنّ أهم خصيصة في «الأشياء» هي أنها لا تتبع إرادة شخص، إننا إذا دفعنا الكرسي يندفع كما نريد، ومقاومة الكرسي النسبية خارجة عن حيز الإرادة، ولا تتبع

---

(١) دوركهايم: تأليف أنتوني كيدنز الترجمة الفارسية للكتاب: ٣١. ترجمة يوسف أباذري.

إرادة شخص من الأشخاص.

وهذه الحقيقة تنطبق على القضايا الاجتماعية تماماً، إلاّ أنها ليست كالكرسي من القضايا المرئية والمحسوسة، فإن القضايا الاجتماعية توجد دائماً خارج الأفراد، وتضغط على الأفراد، وتقيدهم.

فإن كل إنسان يولد في مجتمع قد تحدَّد شكله ونظامه واعرافه وتقاليده وتراثه وحضارته وطبيعته، من قبل ولادته، ولم يكن للفرد دور في تحديد شكل المجتمع، ونظامه، وطبيعته من قبل، ومن الطبيعي أن يتمّ تحديد ثقافة الفرد وعقله وحبّه وبغضه وميوله من خلال هذه العوامل من دون ان يتدخل عامل الاختيار في شيء من ذلك، ولربما تمر على المجتمع قرون طويلة لا يتغير فيها شكل المجتمع، وتعيش أجيال من الناس في هذا المجتمع من غير تغيير.

وعليه فإن الفرد لا يزيد على أن يكون جزءً من كلٍّ كبير واسع الأطراف.

ويحاول «دوركهايم» أن يقرب هذا المفهوم بالتمثيل بالعناصر والتركيبات الكيمياوية، فالخصائص التي يتميز بها كل من الأوكسجين والهيدروجين لا توجد في قطرة الماء

التي تتركب منهما... ولكن قطرة الماء تتالف منهما، ويتحدد شكلها وخصائصها التي تختلف تماماً عن خصائص العناصر التي تشكلها، وكذلك المجتمع بالنسبة إلى العناصر البشرية التي تشكلها[١]، وبهذا النحو من الفهم يفهم «دوركهايم» المجتمع والتاريخ، ويعتبر القضايا الاجتماعية بالصراحة «أشياء» خارجة عن نطاق إرادة الفرد، كما هي حالة «الأشياء» في الفيزياء، ويعتبر الفرد محكوماً بهذا النظام، وليس له من سلطان أو حاكمية على التاريخ والمجتمع.

الانتقاص من قيمة الإنسان في الحتميّات التاريخيّة:

النظريات الحتمية تنتقص من قيمة الإنسان، وتلغي دوره في صناعة التاريخ، فإن التاريخ والحضارة والمجتمع يتكون بموجب قوانين حتمية، تجري بمعزل عن إرادة الإنسان، ورغبته. وتتحرك كما تتحرك الأشياء - كما يقول «دوركهايم» - خارج دائرة إرادة الإنسان، ويتولد الإنسان، ويفتح عينيه على مجتمع أخذ صورته، وشكله، ونظامه من

(١) دوركهايم: تأليف أنتوني كيدنز الترجمة الفارسية: ٣١ - ٣٢.

قبل أن يولد الإنسان، فلا يكون له - إذن - دور يُذكر، في صناعة هذا المجتمع، ويجري، ويتحرك، ويتطور بموجب قوانين حتمية، بمعزل عن إرادته، بينما نجد أن للمجتمع والتاريخ دوراً في صياغة ذهنية الإنسان، وتكوين أخلاقه، وتقاليده، وثقافته، وعقائده.

وهكذا تتطرف نظرية الحتمية التاريخية في الانتقاص من قيمة الإنسان، ودوره في صناعة التاريخ، والحضارة، والمجتمع، إلى حد إلغاء فاعلية إرادة الإنسان «الفرد» في التاريخ والمجتمع، بينما يبالغ أصحاب النظرية الأولى في تأكيد دور الفرد في المجتمع، والتاريخ، إلى حد إلغاء إمكانية التنبؤ بالمستقبل، والانتقاص من قيمة العلية في التاريخ، أو رفض الحتمية، والتعميم الجاريتين في الفيزياء والميكانيك، في حقل التاريخ والمجتمع.

الاتجاه الثالث:

والاتجاه الثالث، في النظريات المادية، لا يلغي دور الإرادة، ولا قانون العلية، ويؤمن بهذا وذاك، ويُسْهِمُ العنصر الإنساني في بناء التاريخ، في الوقت الذي لا ينفي الحتمية والتعميم، وتعتقد بازدواجية العامل المحرك للتاريخ في

«قانون العلية» بآليتها المعروفة، و«إرادة الإنسان»، و«حريته» في اتخاذ القرار...

هذه النظرية تقيم حركة التاريخ على أساسين فقط، وتنفي حضور الرعاية والمشيئة الإلهية في التاريخ، وتفهم هذه الحركة على أنها حصيلة التفاعل القائم بين إرادة الإنسان وقانون العلية، وبالتالي تكون حركة التاريخ خاضعة لإرادة الإنسان، وفي استطاعة الإنسان أن يوجّه المجتمع بالشكل الذي يريد، ويكون «الإنسان» هو العامل المهيمن في هذه الحركة... ولكن من دون حضور «للمشيئة الإلهية» ورعاية الله لحركة التاريخ. وقد يؤمنون بشكل أو بآخر بالله تعالى، وبأن الله تعالى هو خالق هذا الكون وما فيه من سنن وقوانين، ولكن ينفون حضور المشيئة والرعاية الإلهية، بشكل دائم وبصورة مستمرة في حركة التاريخ، كعامل أساسي ورئيسي في تحرك التاريخ.

وهذا هو المنطلق اليهودي المعروف الذي يحدثنا عنه

القرآن الكريم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾[1].

هذه هي أهم الاتجاهات المادية المعاصرة في حركة التاريخ، ونقصد بالمادية كل النظريات ذات التوجه المادي في التاريخ، سواء كان أصحابها يؤمنون بالله تعالى كاليهود أو ينفون وجود الله عزوّجل.

وهذه الاتجاهات كما شرحناها ثلاثة:

١- التشكيك في قيمة ودور قانون العلية في حركة التاريخ.

٢- التشكيك في دور الإنسان في حركة التاريخ.

٣- الاعتراف بدور قانون العلية ودور الإنسان معاً في حركة التاريخ، من دون الاعتراف بدور الرعاية الإلهية في حركة التاريخ.

وفيما يلي نحاول أن نكتشف أصول المذهب التاريخي في القرآن الكريم:

المذهب التاريخي في القرآن:

ليس القرآن الكريم كتاباً في الفلسفة يعنى بدراسة

---

(١) المائدة: ٦٤. نستظهر من الآية الكريمة أنّ اليهود كانوا يقصدون بالغِلّ ما يقابل البسط وما يقابل الفاعلية والتأثير.

المسائل الفلسفية والتاريخية بصورة مشروحة... وإنما هو كتاب دعوة وهداية وتشريع... ولكننا نستطيع أن نستخرج من ثنايا آيات كتاب الله الأُصول العامة للتفكير بشكل دقيق.

وعندما نستعرض آيات القرآن نجد خطوطاً واضحة تمكننا من رسم مجمل المذهب القرآني في حركة التاريخ.

إن المذهب الإسلامي في تفسير التاريخ يقيم التاريخ على ثلاثة أسس وليس أساسين فقط، ويؤمن بأن بناء التاريخ لا يمكن أن يقوم على أساسين فقط، ولا يمكن أن نفسر حركة التاريخ على أساس «قانون العلية» أو «إرادة الإنسان» فقط من دون أن نأخذ المشيئة الإلهية ورعاية الله تعالى عاملا أساسياً في حركة التاريخ بنظر الاعتبار.

وهذه الأسس هي:

١- قانون العلية.

٢- حرية إرادة الإنسان.

٣- الرعاية الإلهية.

وفيما يلي نفصل هذا الإجمال:

١ـ قانون العليّة في التاريخ السنن الإلهيّة

الحياة الاجتماعية والحضارة البشرية والتاريخ ليست بدعاً من الأُمور في هذا الكون - كما قلنا سابقاً -... ولا يمكن أن نستثني شيئاً في هذا الكون من قانون العلية، ونتائج هذا القانون دائماً نتائج حتمية لا يمكن أن تتخلف عن أسبابها وظروفها. وهذه النتائج تعمّ كل الحالات المشابهة، وتتكرر كلما تتكرر الأسباب والظروف المؤدية إلى وجودها. . ومعنى ذلك أن كل واحد من الأصول الثلاثة لقانون العلية من «الحتمية والتعميم والمسانخة»[١]. يجري في الحقل الحضاري والتاريخي كما يجري في حقول المادة.

والظاهرة الحضارية لا تختلف عن الظاهرة المادية في أنها تخضع لنفس القوانين والأُصول التي تخضع لها الظاهرة المادية، فإن قانون العلية لا يقبل استثناء ولا يمكن أن تحدث

---

(١) معنى المسانخة هي السنخية الموجودة بين العلة والمعلول. انّ بين النار والحرارة مسانخة ومشاكلة وبين الماء والرطوبة مسانخة، فلا يمكن ان تنتج النار الرطوبة ولا الماء الحرارة ولا تثمر شجرة التفاح ثمراً ولا النخل تفاحاً. وهذا هو اصل المسانخة.

ثغرة أو خلل في تطبيق هذا القانون في المجتمع أو في غير المجتمع من هذا الكون.

فالحياة الاجتماعية والتاريخ - إذن - يسيران بموجب نظام وقانون دقيق، وبنفس الدقة التي تجري قانون العلية في الفيزياء والكيمياء.

والأحداث الاجتماعية الكبيرة والصغيرة، والانقلابات، والثورات، والركود، والحركة، والفشل، والنجاح، والنصر، والهزيمة، والثقافة، والجهل، والغنى، والفقر، والقوة، والضعف، والهلاك، والسقوط، وولادة الحضارات ونموها، وغير ذلك من مظاهر الحركة الاجتماعية لا تحدث بصورة عفوية كما تتصور - ذلك - بعض المذاهب التاريخية.

وإنما يجري ذلك كله بموجب قوانين وسنن إلهية ثابتة، كما أن الحاضر ليس مفصولا عن الماضي وإنما هو نتيجة حتمية للماضي ولا يمكن تفكيك أجزاء الحضارة البشرية الواقعة على إمتداد الزمان بعضها عن بعض، فكل جزء يرتبط بالجزء الذي قبله ارتباطاً قوياً، وكل جزء حصيلة الأجزاء السابقة ومادة للأجزاء اللاحقة... وهكذا... فإن الحضارات البشرية على امتداد التاريخ ليست قطعاً وشرائح حضارية

متقطعة ومتفككة، وليست الشرائح المعاصرة غريبة عن الشرائح السابقة، كما ليست الشرائح الحضارية المقبلة مفصولة عن الشريحة الحاضرة والشرائح الماضية.

وهذه الشرائح والمقاطع الحضارية الممتدة على امتداد التاريخ مرتبطة ببعض، بقانون العلية، وكما لا يمكن أن يحدث شيء بصورة عفوية في حقول الفيزياء والكيمياء والميكانيك، كذلك لا يمكن أن يحدث حدث اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي بصورة عفوية وإنما يحدث ذلك جميعاً بموجب سنن وقوانين ثابتة تماماً كما يحدث في حقول المادة.

التأثيرات السطحيّة والعموديّة على الشريحة الحضارية:

ولنأخذ شريحة من شرائح الحضارة الإنسانية للدراسة... نجد أن هناك نوعين من التأثيرات على هذه الشريحة تتقوم بهما:

النوع الأول: التأثيرات المتقابلة «السطحية» بين أجزاء وعناصر هذه الشريحة الحضارية في مقطع زماني واحد، فالمدرسة – مثلا – لها تأثير متقابل على العائلة في شريحة

حضارية واحدة، كما العكس كذلك للعائلة تأثير في المدرسة وللسياسة تأثير في المدرسة. . وهكذا، وهذه التأثيرات المتقابلة والتفاعلات القائمة بين أجزاء وعناصر الشريحة الحضارية الواحدة لها دور في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية.

والنوع الثاني: التأثيرات «العميقة» و«العمودية» للعمق التاريخي البعيد والقريب على هذه الشريحة الحضارية... وهذا النوع من التأثير يتقوم بسلسلة من العلل والأسباب والمؤثرات المختلفة التي كان لها الدور في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية على الامتداد العمودي للتاريخ... وهذه العوامل والمؤثرات الممتدة على عمود الزمان والتي تساهم في فواصل زمانية مختلفة في بناء وصياغة هذه الشريحة الحضارية... هي «التاريخ».

فأيّة شريحة حضارية... - إذن - لا تتكون بصورة عفوية منفصلة عن العوامل والمؤثرات المقارنة والعوامل والمؤثرات التاريخية، ولا يمكن فهمها بمعزل عن هذين النوعين من المؤثرات.

والمجتمع البشري كأي شيء آخر في هذا الكون يخضع

لقانون العلية «الأسباب والمسببات» بكل تفاصيل هذا القانون.

وقانون العلية «الأسباب والمسببات» يجري في الحقل الاجتماعي والحضاري كما يجري في حقل الفيزياء والميكانيك[١] في هذا الكون.

القرآن يفتح أفقاً فكرياً جديداً أمام العلم:

وهذا الفهم للمجتمع وللحضارة شيء جديد في تاريخ الفكر الإنساني... والقرآن الكريم كما سوف نرى أول كتاب يفتح هذا الأفق الفكري الجديد أمام العلماء.

وفي تاريخ الفكر الإسلامي نلتقي لأول مرة هذا اللون من الفهم العلمي للمجتمع والحضارة في القرآن، ونعرف أن الحضارة البشرية تخضع لـ سلسلة من العلل والقوانين وتتبع قوانين وأصولا يسميها القرآن الكريم بـ«السنن الإلهية»، ونعرف أن هذه القوانين ثابتة لا تتبدل في حياة الإنسان ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[٢]. وفي «نهج البلاغة» تطبيق

(١) مع فارق نذكره قريباً.
(٢) الأحزاب: ٦٢.

وتقنين وتوضيح دقيق لهذه البصيرة القرآنية، ومن امثلة ذلك - وهي كثيرة - خطبة القاصعة للإمام علي عليه السلام.

ونستطيع أن نقول إن أول من استطاع أن يستخرج جملة من هذه السنن ويخضعها لدراسة علمية منظمة من علماء المسلمين هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرّخ والمفكر الأفريقي المغربي المعروف.

فقد استطاع ابن خلدون أن يتجاوز السطحية التي كانت تتصف به الدراسات التاريخية والحضارية من قبل، واستطاع أن يكتشف الأصول والقوانين التي تتبعها الحضارة والمجتمع أو كما يقول «العمران البشري»، واستطاع أن يكتشف أن «العمران البشري» ليس بدعاً من الأشياء في هذا الكون، وإنما هو أيضاً كأي شيء آخر يخضع لقانون العلية: «الأسباب والمسببات» وبغير هذه الصورة لا نستطيع أن نفهم المجتمع والحضارة الإنسانية.

السّنن الإلهيّة:

يشير القرآن الكريم بشكل خاص إلى هذه المسألة، ويؤكد بأن الحضارة الإنسانية في ولادتها، ونموها، ونضجها، وضعفها، وانتكاسها، وسقوطها، وموتها تتبع قوانين وسنناً

إلهية ثابتة.

ويؤكد بأن أمثال هذه الأحداث لا تحدث بصورة عفوية، وإنما تحدث بموجب سنن وقوانين، وان هذه السنن هي سنن الله تعالى، وأنها سنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

وينظر إليها القرآن نظرة أوسع وأشمل من النظرة المادية التي ينظر بها أصحاب التوجهات المادية التاريخية. كما سوف نرى إن شاء الله.

حتميّة السنن التاريخية:

والسنّة كما يقول الراغب[١] «الطريقة»، وسنة الله «طريقة حكمته»، فهي القوانين والأصول الإلهية التي تجري عليه مشيئة الله تعالى في خلقه. ومشيئة الله تعالى سنن وقوانين وهذه القوانين حتمية لا تتبدل. والقرآن الكريم يعبر عن هذه الحتمية بطرق مختلفة كقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِنۡ يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ**

(١) مفردات الراغب: ٢٤٥.

الأَوَّلِين﴾[١].

هكذا، سنة ماضية، وقانون نافذ، لا يتخلّف، ولا يسلم منه أحد. يقول البيضاوي في تفسير هذه الآية الكريمة: « **وَإِنْ يَعُودُواْ** (إلى قتاله – رسول الله –) **فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ** (الذين تحربوا على الأنبياء بالتدمير، كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك)»[٢]. ويقول تعالى:

﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾[٣].

هكذا قدر مقدور، لا مفر منه، كما جرت هذه السنة الإلهية في الذين خلوا من قبل.

﴿**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ**

---

(١) الأنفال: ٣٨.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٤٠.

(٣) الإسراء: ٧٧.

تَحْوِيلاً﴾(١).

فسوف لا تحل بهم إلا سنّة الله في الأولين، وهي سنة ثابتة ماضية لا سبيل إلى تبديلها وتحويلها.

الرؤية التوحيدية لسنن اللّه:

والقرآن الكريم ينظر إلى هذه السنن والقوانين والأصول الثابتة في حركة التاريخ من خلال نظريته الشمولية في «التوحيد» وينسب هذه السنن إلى الله تعالى جميعاً، وينفي أن تكون هذه السنن تجري بمعزل عن مشيئة الله أو خارجة عن إرادة الله تعالى.

لاحظ الآيات: الإسراء: ٧٧ والأحزاب: ٣٨ و٦٢ وفاطر: ٤٣ وغافر: ٨٥ والفتح: ٢٣.

وهذه هي الميزة الأولى للرؤية الإسلامية إلى السنن والقوانين عن الرؤية المادية.

علاقة الجزاء بالعمل في سنن اللّه:

وهذه السنن تشتمل على نوع من العلاقة بين العمل

---

(١) فاطر: ٤٣.

والجزاء لا تخضع للحسابات المادية، فإن التصور المادي لقانون العلية في التاريخ وللعلاقة السببية بين مسلسل الأحداث في التاريخ لا يزيد على تصور العلاقة المحسوسة بين الأحداث، كالعلاقة بين العرض والطلب في السوق وبين أسعار البضائع.

وأما علاقة الجزاء بالعمل فهو من العلاقة السببية غير المحسوسة وغير المفهومة بالرؤية المادية للتاريخ ولكنها داخلة في دائرة العلاقة السببية والعلية بين العلة والمعلول.
والقرآن الكريم يلفت نظرنا إلى هذا النوع من العلاقة والإرتباط في التاريخ في مساحة (الغيب).

﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إلاّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾.

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

---

(١) الأنفال: ٢٥.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(١).

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(٢).

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا

---

(١) فاطر: ٤٤.
(٢) الفتح: ٢٢ – ٢٣.
(٣) آل عمران: ١٣٩.
(٤) النمل: ٥٢.

كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٢).

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(٣).

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾(٤).

هذه العلاقة الحتمية وغير المرئية بين الفعل والجزاء مما يخفى على الذهنية المادية، والقرآن الكريم يسلط الضوء على هذا النوع من العلائق بين الفعل والجزاء ويصفها بصفة الحتمية التي لا سبيل إلى تبديلها وتحويلها، وهي من العلاقة العلية والسببية، ولكن في مساحة الغيب وليس في مساحة (الشهود).

---

(١) العنكبوت: ٣٤.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) الطلاق: ٤.

سنن اللّه في التاريخ مرآة لحاضر الإنسان ومستقبله:

ثم يلفت القرآن نظر الإنسان إلى هذه السنن الإلهية الثابتة في التاريخ ليتخذ منها مرآة ينظر من خلالها إلى نفسه وحياته وعصره ومستقبله.

إنّ التاريخ عندما يكون شتاتاً من الأحداث المتفرقة التي تتجمع وتتفرق بصورة اعتباطية، ومن دون قانون وسنّة... تفقد الشفافية التي تمكّن الإنسان أن ينظر من خلالها إلى نفسه وعصره وأمته، ولكن عندما يكون التاريخ مجموعة من السنن والقوانين الثابتة فإن بإمكان الإنسان أن ينظر من خلال مرآة التاريخ إلى نفسه وعصره، ويقوّم من خلال هذه المرآة نفسه ومجتمعه.

إن استعراض التاريخ في القرآن الكريم يتم من خلال الأصول والقوانين الثابتة في حركة التاريخ.

والقرآن يعرض هذه الصورة المقنّنة من التاريخ ليجعل منها مرآة للناس ينظرون من خلالها إلى أنفسهم وعصرهم ثم يؤكد بصورة متكررة الدعوة إلى النظر إلى هذه المرآة للاتعاظ والعبرة، ليعدّل الإنسان سلوكه وعمله من خلال النظر إلى هذه المرآة.

ولنقرأ هذه الآيات المباركات في مواضع مختلفة من كتاب الله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾(١).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ﴾(٢).

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

فالخطاب هنا للأمة وليس للفرد، والسنن والقوانين التي تذكرها هذه الآيات سنن جارية في حياة الأمم والجماعات.

﴿..فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۞

---

(١) محمد: ١٠.

(٢) الرعد: ٦.

عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[١].

وهذه الآيات المباركات جديرة بالكثير من التأمل لفهم سنن الله تعالى في حياة الإنسان.

فالخطاب هنا للأمة، وليس للفرد، والسنن والقوانين التي تذكرها هذه الآيات سنن جارية في حياة الأمم والجماعات.

ولنتأمّل مرة ثانية في هذه الفقرات من آيات الله:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[٢].

بعد كل فساد واستكبار ينذرهم الله بعذاب وخراب.

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ بعد الفساد والاستكبار الأول **﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾**: سلّط الله عليهم رجالاً أشداء، ليقتلوهم وليأسروهم، ولينفذوا إلى داخل بيوتهم، وليذلوهم في عقر دورهم.

---

(١) الإسراء: ٧ – ٨.

(٢) الإسراء: ٤.

ثم تؤكد الآية الكريمة بشكل حاسم أن هذه النتيجة مصير حتمي لبني إسرائيل، ووعد قاطع نافذ لله تعالى ﴿**وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾ لا يتخلّف ولا يتغير، والقرآن هنا يحدثنا عن واحدة من أعمق القوانين والسنن الإلهية في الكون والمجتمع.

﴿**فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾(١).

ثم إذا ندم بنو إسرائيل وتابوا إلى الله تعالى أعاد الله تعالى إليهم رحمته وبركاته، ومكّنهم من أعدائهم، ونصرهم عليهم، وأمدَّهم بالأموال والبنين... وهذا قضاء آخر، وقانون آخر، وسنة أخرى لله تعالى ثابتة وماضية أيضاً، لا تختلف ولا تتبدل.

﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾(٢).

---

(١) الإسراء: ٥.

(٢) الإسراء: ٦.

ثم يأتي القضاء العام، والقانون والحكم الإلهي الثابت في بني إسرائيل وفي كل الأمم.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ﴾ وعاد بنو إسرائيل من جديد، نتيجة الترف إلى الطغيان والإستكبار والإستعلاء، سلّط الله تعالى عليهم من جديد أعداءهم، ليهلكوهم وليذلوهم كما فعل بهم أعداؤهم أول مرة.

ثم إذا عدتم إلى الله من جديد، وتبتم، وأقلعتم عن المعاصي والذنوب فـ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾... وهذه فقرة أخرى من السنن الإلهية من هذا المقطع القرآني... ولكن ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ إن عدتم إلى الطغيان والإستعلاء على وجه الأرض عاد الله عليهم بالعذاب والتنكيل والإذلال.

أرأيت كيف ينطق القرآن بالسنن الإلهية الحاسمة والنافذة والمستمرة... ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

ولنستمر مع القرآن الكريم شوطاً آخر من التأمل في سنن

---

(١) الإسراء: ٧.

الله تعالى في حياة الإنسان.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾(١).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(٢).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٣).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ

---

(١) النحل: ٣٤.

(٢) الإسراء: ١٦- ١٧.

(٣) الأعراف: ٩٦.

الْمُجْرِمِينَ﴾(١).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة، وكلها ينطق بهذا الفهم العلمي الدقيق للتاريخ، سنن وقوانين وأصول ثابتة للتاريخ والحياة.

ولا تسقط أمّة، ولا يكون فرار ولا هزيمة، ولا إنتكاسة، ولا إزدهار ونمو ونضج، إلا بموجب قوانين وسنن إلهية ثابتة.

وهذه السنن كلها لله تعالى أوجدها بمشيئته وحكمته، وهَدى إليها عباده.

أصل وحدة الأمة في القرآن:

في الوقت الذي يقرر القرآن الكريم قدرة الإنسان على الإختيار، والإرادة، وتقرير المصير، بشكل تام... يقرر القرآن

---

(١) يونس: ١٣.

(٢) الأنعام: ١٢٣.

الكريم أصلا هاماً في حياة الأمم في التاريخ وهو (وحدة شخصية الأمة) وهذه الوحدة في نسيج الأمّة والمجتمع تأتي على بعدين:

١- البعد الأُفقي.

٢- البعد العمودي.

١ـ البعد الأفقي:

ففي البعد الأفقي، لا يمكن أن يعزل الفرد الذي يعيش في مجتمع ما نفسه عن عواقب وتبعات سيئات قومه مهما صلح أمره. يقول تعالى:

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(١).

وقد ينسب القرآن الكريم عمل فرد واحد من الناس إلى الأمّة جميعاً، إذا كانت الأمة راضية بذلك العمل.

يقول الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«أيها الناس إنّما يجمع الناس الرضى والسخط، إنما عقر

---

(١) الأنفال: ٢٥.

ناقة ثمود رجل واحد، فعمهم الله بالعذاب، كما عموه بالرضى، فقال سبحانه ﴿**فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ**﴾، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة»(١).

وكلام الإمامعليه السلام كلام دقيق، فإن الرضى بالجريمة في الوسط الاجتماعي نحو من المشاركة في ذلك العمل، وإن كانت ممارسة الجريمة من طائفة من المجتمع، ولكن الآخرين لما أعلنوا رضاهم بالسكوت عنها، كان سكوتهم عنها بحكم الإقرار لها والمشاركة فيها، وذلك أن الجرائم الكبيرة المعلنة تختلف عن الجرائم الفردية التي يرتكبها الناس في الخفاء، فإن المجرم لا يتمكن من ممارسة الجرائم الكبيرة أمام الملأ، ويتحدى بها مشاعر الأمة، لولا أن يدعمه الآخرون بالتأييد والرضا والتشجيع.

وعند ذلك فلا يكون المجرم وحده ينفّذ تلك الجريمة، وإنما يشاركه فيها الراضون الذين دعموه وأعانوه بالرضا والتأييد، والسكوت.

---

(١) نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي صالح، خطبة ٢٠١، ص: ٣١٩.

٢ـ البعد العمودي:

ويعتبر القرآن الكريم الأمة في عمرها الزمني وإمتدادها التاريخي قطعة واحدة متصلة ومترابطة، يعتبر الجيل السابق مادة وأساساً لبناء الجيل الحاضر، ويكون الجيل الحاضر حصيلة لعمل الجيل السابق، وينسب القرآن الكريم عمل الجيل السابق، عندما يحظى برضى الجيل الحاضر إلى الجيل الحاضر. يقول تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

إنّ هؤلاء الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء هم من

---

(١) آل عمران: ١٨١ – ١٨٣.

اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ... والله تعالى ينسب إليهم جرائم آبائهم في قتل الأنبياء ﴿**وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء**﴾.

وعندما طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقربان تأكله النار أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحاججهم ويقول لهم: ﴿**قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، علماً بأن القوم الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقربان تأكله النار لم يقتلوا نبياً.

ومؤاخذة الحاضرين وعتابهم بأعمال أسلافهم مذكورة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ولهذه المؤاخذة والعتاب، رغم أنهم لم يرتكبوا شيئاً، مغزى اجتماعي، نعرفه، إذا عرفنا أبعاد التصور الإسلامي للتاريخ والحضارة... فإن هذه المؤاخذة لا تتم إلا عندما يرضى الخلف بفعل السلف ولا يتبرأ منه ويدافع عنه، وهذه هي الوشيجة والصلة القائمة بين الأجيال من أمة واحدة، والتي تربط الأجيال من أمة واحدة وحضارة واحدة بعضها... ببعض.

فإذا انقطعت هذه الصلة (الرضا والحب) بين الأجيال من أمة واحدة فإنها ستتحول من أمة إلى أمة أخرى، وتنقلب من حضارة إلى أخرى، فلا تكون بين جيل وآخر صلة أو علاقة

ولا مسؤولية ولا مؤاخذة ولا عقوبة، ولن يكونوا أمّة واحدة.

وما دام الحب والبغض والولاء والبراءة واحد فإنّ الأمة واحدة والحضارة واحدة لا محالة يتحمل الخلف إثم السلف، وتنتقل ولاء الآباء وبراءة الآباء إلى الأبناء، ويستوجب الأبناء المحاسبة والمؤاخذة والعقوبة على جرائم آبائهم على هذا الأساس.

ثم نُلقي نظرة ثانية على حالة وحدة الولاء والبراءة - هذه - بين الأجيال، فنرى أن السلف هو المسؤول عن ولاء أبنائهم، وبراءتهم، وانحرافهم، وزيفهم، وانتمائهم إلى محور الباطل والطاغوت، دون أن يسلب ذلك حريّة إرادة الأبناء في تقرير مصيرهم بشكل مستقل عن الآباء، كما سوف نتحدث عن ذلك إن شاء الله في العنصر الثاني من عناصر النظرية الإسلامية في التاريخ...

فإن الآباء لا شكّ يمهّدون أرضية خصبة للانحراف والشرك والفساد للجيل اللاحق، ويغذون الجيل الذي يأتي من بعدهم بشكل غير مرئي بالفكر والحضارة الجاهلية، وينقلون فكرهم، وأخلاقهم، وأعرافهم، وتصوراتهم إلى الجيل الذي يأتي من بعدهم، وهذا هو البعد غير المرئي

للحضارة.

ونلاحظ بشكل أكثر وضوحاً هذا التصور القرآني للتاريخ، والصلة الوثيقة القائمة بين الأجيال من أمة واحدة وحضارة واحدة في دعاء نوحعليه السلام بهلاك قومه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(١).

فالجيل الذي تمرد على الله تعالى ورسوله من قوم نوح لا يلدون إلا فاجراً وكفاراً، وهذه الحضارة والأُمّة الجاهلية لا تغذي من بعدها من الأجيال إلاّ الشر والفساد والفجور والكفر.

ولعل الآية الكريمة التالية تلقي ضوءاً على هذه الحقيقة: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾(٢).

وبهذه الصورة نرى أن القرآن الكريم يربط الحاضر

---

(١) نوح: ٢٦ – ٢٧.
(٢) الأعراف: ٥٨.

بالماضي والماضي بالحاضر من أمـة واحـدة فـي المسـؤولية، والمحاسبة، والمؤاخذة فالجيـل الحاضـر مسـؤول عـن سـلفه، والسلف مسؤول عن الخلف.

وهـذه الآيـات المباركـات تكشـف الـى حـد بعيـد أبعـاد التصور الإسلامي في النسيج الاجتماعي والتاريخي المتـرابط للأمة الواحدة وحكومة قانون العليّـة فـي التـاريخ والمجتمـع، وتـأثير كـل جيـل فـي الأجيـال التـي تليـه فـي الخيـر والشـر.

٢ـ حرية الإرادة

العنصر الثاني من عناصر المذهب التاريخي في الإسلام حرية إرادة الإنسان. والتاريخ وإن كان يتحرك بموجب قانون العلية حركة حتمية، لكن الإنسان – بما آتاه الله من القدرة على الاختيار والإرادة – يمسك بيده ناصية التاريخ، ويوجه أسباب وعوامل حركة التاريخ، فتخضع حركة التاريخ لإختيار الإنسان وإرادة الإنسان، من دون أن ينتقض قانون العلية، أو تختل حتمية هذا القانون.

إن الطائرة تطير في الجو والباخرة تجري في البحر بموجب قوانين الميكانيك والفيزياء الحتمية، وهي سلسلة من الأسباب والعلل التي تخضع لقانون العلية وخصائص هذا القانون بشكل دقيق... ولكن الطيار والربان يتحكمان أيضاً وبصورة دقيقة في مسير وحركة الطائرة والباخرة. . وفي الإقلاع والهبوط والحركة والإيقاف، وليس معنى ذلك أن يختل قانون العلية أو يتعّطل أصل الحتمية في قانون العلية، وإنما الإنسان يقع في سلسلة المصادر والأسباب التي تحرك التاريخ، فيحرك الإنسان عجلة التاريخ ضمن قانون العلية بالطريقة التي يريدها.

العلاقة بين حرّية الإرادة وحتمية القانون:

وهذه العلاقة بين حرية إرادة الإنسان وحتمية قانون العلية، والتداخل الذي يقع فيما بين هذين الأمرين في الحضارة والمجتمع والتاريخ تؤدى في تاريخ الفلسفة إلى تعقيدات فكرية وتصورية كثيرة، وظهور مذاهب متطرفة في الفلسفة.

والقرآن الكريم يصوّر هذه العلاقة بصورة دقيقة، ويربط أحدهما بالآخر ربطاً محكماً، ولا ينفي أياً منهما على حساب الآخر، فيقر بهذا وذاك، ويعطي المحصلة الناتجة منهما بشكل دقيق.

ففي الوقت الذي يعترف القرآن للإنسان بحرّيّة إرادته وإختياره، ويربطه بنتائج إختياره، ويحمّله مسؤولية إرادته واختياره. فهو عنصر حر وفاعل ومؤثر في مجرى التاريخ، إلاّ أنه رغم ذلك كله لا يستطيع أن ينفلت من قبضة الحتمية العلية، وبالتالي لا يستطيع أن ينفلت من نتائج وآثار فعله.

يستطيع أن يحقق ما يريد، ولكن في دائرة الحتمية العلية، ودون أن يستطيع أن يتخلص من نتائج اختياره وإرادته.

إن للإنسان حرية كاملة في أن يختار السُمّ أو الغذاء،

ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من النتائج الحتمية المترتبة على كل منهما، عندما يختار أيّا منهما. فالغذاء يغذي جسمه والسمّ يقتله وإذا اختار أياً منهما تترتب عليه نتائجه بصورة قهرية، وبالتالي، فهو باعتبار النتائج التي ينتهي إليها، يخضع للحتمية العلية، وباعتبار المبادي التي ينطلق منها ينطلق من إرادة حرة، مستقلة غير خاضعة لأيّة حتمية.

ولربما نجد في الحديث التالي بعض الأضواء على هذه الحقيقة:

روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عدل عن عند حائط مائل إلى مكان آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين! أتفرّ من قضاء الله؟ فقال عليه السلام: «أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله»[1]. والأمام عليه السلام يقصد انّه يفرّ من قضاء لله إلى قضاء آخر لله، وكلاهما حتميّان ولكن اختيار أيٍّ منهما بيد الإنسان واختياره.

فإن للإنسان أن يختار أيّاً منهما باختياره وإرادته، فيجلس تحت الحائط المائل، أو يغير مكانه إلى نقطة أخرى بعيدة عن الخطر. ولكن إذا اختار الجلوس في النقطة الأولى، فإن

(١) بحار الأنوار ٥: ٩٧ و ١١٤.

وقوعه تحت الخطر نتيجة حتمية، لا يمكن أن يتخلص منها.

فللّه – تعالى – في الحقيقة قضاءان حتميان، للإنسان أن يختار أيّاً منهما بإرادته واختياره، الخطر والسلامة، فإذا اختار الأول كان الوقوع تحت الخطر نتيجة حتمية لفعله، وإذا اختار النقطة الثانية كان خلاصه من الخطر، وسلامته نتيجة حتمية أيضاً، من دون أن تعارض هذه الحتمية قدرة الإنسان على الاختيار. وهذا هو بالضبط ما يجري في تعامل الإنسان مع المجتمع والتاريخ.

حرية الاختيار إلى جانب حتمية النتائج:

والى هذه الحقيقة المزدوجة تشير آيات كتاب الله إشارات واضحة.

فمن ناحية يقرر القرآن الكريم حريّة إرادة الإنسان، بصورة قوية، وواضحة، ومن دون أي تحفظ، ومن ناحية أخرى يقرر القرآن حتمية النتائج التي تترتب على اختيار الإنسان وحريته، ومسؤولية الإنسان عن أفعاله واختياراته.

وفيما يلي نشير إلى هذه الحقيقة القرآنية المزدوجة في طائفتين من الآيات:

الطائفة الأُولى، الآيات التي تقرر حرّية إرادة الإنسان، والطائفة الثانية الآيات التي تقرر حتمية النتائج المترتبة على هذا الاختيار ومسؤولية الإنسان عنها.

الطائفة الأولى من الآيات:

وهي طائفة واسعة من الآيات نذكر منها قوله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(١).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾(٢).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٣).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(٤).

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) البقرة: ٩٠.

(٣) يونس: ٤٤.

(٤) يونس: ١٠٨.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(١).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾(٢).

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(٣).

﴿فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(٤).

الطائفة الثانية من الآيات:

وفي القرآن طائفة أخرى واسعة من الآيات تدل على أن اختيار الإنسان هو أساس تاريخ الإنسان، وأن هذا الاختيار إن كان خيراً أو شراً، يصنع بصورة حتمية تاريخ الإنسان، ولا

---

(١) آل عمران: ١٤٥.

(٢) النساء: ١٣٤.

(٣) الإسراء: ٨٤.

(٤) الإنسان: ٢٩.

يستطيع الإنسان أن يتخلص من نتائج عمله وكسبه، ويقع اختيار الإنسان وكسبه، واختيار الأُمّة وكسبها في سلسلة علل وأسباب التاريخ. وتعمل هذه العلل والأسباب عملها بصورة حتمية في حياة الإنسان وتاريخه، وتستتبع النتائج المترتبة عليها بصورة قطعية وحتمية... ولكن مبادئ هذه الحتمية التاريخية تقع في يد الإنسان وتحت اختياره، وإن كانت النتائج حتمية وخارجة عن اختياره.

ولنقرأ شطراً من هذه الآيات من كتاب الله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[1].

كل نفس رهينة بأعمالها لا تستطيع أن تتخلص من النتائج الحتمية التي يستتبعها عملها وكسبها، وكسب الإنسان وعمله يقع تحت اختياره. ولكن النتائج التي يستتبعها عمله وكسبه تقع بصورة حتمية ويكون هو رهيناً بها.

﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾[2].

---

(١) المدثر: ٣٨.

(٢) الكهف: ٥٩.

وهلاك الأُمم والأقوام - والحديث هنا عن الأمم وليس عن الأفراد - نتيجة حتمية لظلم الأمم وفسادهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1).

وبداية الأمر في هذه المسيرة الحضارية: حين يعرض الإنسان عن ذكر الله، فتحلُّ بهم سُنّة الاستدراج، ويفتح الله عليهم أبواب كل شيء، ثم يأتيهم بعد ذلك سُنة المحق والهلاك، بصورة حتمية:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(2).

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ

(1) الأنعام: ٤٤- ٤٥.
(2) الأعراف: ٩٦.

يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾(١).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(٥).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن

---

(١) النجم: ٣٩-٤١.

(٢) الزمر: ٧٠.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٣٤.

(٥) البقرة: ٢٨٦.

رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾(٢).

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾(٣).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

الأمر بين الأمرين:

وهذه الحالة التي يشرحها القرآن الكريم في هاتين الطائفتين من الآيات، هي الأصل المعروف الوارد عن أهل

---

(١) المائدة: ٦٥- ٦٦.

(٢) هود: ٥٢.

(٣) الجن: ١٦.

(٤) النحل: ٤١.

البيتعليهم السلام من (الأمر بين الأمرين) في الصراع العقائدي الذي احتدم بين المسلمين في إثبات الاختيار للإنسان او نفي الاختيار عنه. فقد طرح أهل البيتعليهم السلام في هذه المعركة الفكرية مبدأ (الأمر بين الأمرين) في مقابل النظريات الفكرية المتطرفة التي تبناها كل من طرفي الصراع في الحرية المطلقة لإرادة الإنسان أو نفي الحرية عن إرادة الإنسان بشكل مطلق، وهذا الأصل ينطلق من التصور القرآني الذي ذكرناه.

ولعل الآيتين الكريمتين تشيران إلى هذه الحقيقة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(٢).

وفي هاتين الآيتين يوجد تغييران اثنان:

١- تغيير الإنسان لنفسه: (**حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**).

---

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) الرعد: ١١.

٢- تغيير الله تعالى للإنسان، والتغيير الثاني يجري بموجب السُّنن والقوانين الإلهية الحتمية وينسبها القرآن الكريم إلى الله تعالى بصورة مباشرة على طريقة القرآن التوحيدية من إسناد الكون والعوامل المؤثرة في الكون إلى الله عزّ شأنه.

وهو يتبع التغيير الأول، فكيفما يصنع الإنسان بنفسه من تغيير، يصنع الله تعالى به، بموجب القوانين والسنن الإلهية الحتمية.

إن للإنسان ملء الحرية أن يختار هذا الطريق أو ذاك، ولكنه إذا اختار أحدهما فلا يملك التخلص من النتائج الحتمية المترتبة عليه.

الخلاصة والنتيجة:

إن القرآن الكريم يقرر العلاقة بين هذه الحرية وتلك الحتمية بصورة رائعة ودقيقة ومتينة ويأخذ بنظر الاعتبار كلاً من العاملين الأساسيين في حركة التاريخ ويربط بينهما ربطاً علمياً في غاية الدقة والمتانة.

فليس التاريخ -وهنا جوهر النظرية - حركة منفلتة من قانون العلية وأصوله الذي ينظم الكون كله، وليس التاريخ

بدعاً من الأمور والأشياء، التي تخضع للحتمية العلية، كما يقول أصحاب نظرية (التاريخية) «Historicism».

وفي نفس الوقت لا تكاد تشبه قوانين التاريخ. . قوانين الفيزياء، ولا تشبه الحتمية التاريخية... الحتمية في الفيزياء.

ونحن عندما نؤمن بالحتمية التاريخية لا نريد أن نكرر ما يقوله أصحاب نظريات الحتمية التاريخية في إلغاء دور الإنسان الفاعل في تغيير مسار التاريخ، وإعطاء مسار جبري ثابت لتاريخ الإنسان يجري بصورة حتمية ومستقلة من إرادة الإنسان، كما يقول أصحاب النظريات الحتمية في التاريخ مثل كارل ماركس وانجلز.

إن النظريات المعروفة بالاتجاه الجبري في تفسير التاريخ تكاد تلغي الدور التغييري الفاعل للإنسان في حركة التاريخ، وتعتبر الإنسان جزءاً صغيراً في عملية التاريخ الكبرى التي تتحرك بقانون العلية، والأمر ليس كذلك، وحركة التاريخ لا تشبه الحركة الفيزياوية الدائرية في الكون، وإذا جاز لنا أن نرسم المسار الكلي لحركة التاريخ، فلابد أن تقول إن حركة التاريخ حركة حلزونية وليست دائرية، ولا يمكن التنبّؤ الدقيق بها إلا بموجب القانون الكلي الذي يعطيه القرآن

الكريم لهذه الحركة.

كيف يخترق الإنسان قهر البيئة؟

قد يقال: إنّا لا ننفي (الإرادة) للإنسان، ولكن (إرادة الإنسان) تقع مقهورة للمحيط والمجتمع، وإذا استطاع أن يغير أو يبدل شيئاً من حركة المجتمع، فلا يكون دوره دوراً تغييريّاً فاعلاً في المجتمع.

وعلى ذلك فإن الفرد لا يكاد يملك حرية التحرك واتخاذ القرار بغير الاتجاه العام الذي يتحرك فيه المجتمع.

وتكون النتيجة على كل حال حتمية حركة التاريخ، وحتمية تبعيّة الفرد للمجتمع والوسط الحضاري والاقتصادي.

نقول في الجواب إِنّ القرآن الكريم يبيّن أن الله – تعالى – قد زوّد الإنسان، إلى جانب الإرادة والقدرة على إتخاذ القرار، بالعقل والبصيرة والفطرة التي تمكنه من التشخيص السليم والتمييز الدقيق.

وتبعية الفرد للمجتمع الفاسد تقع نتيجة فقدان الوعي والقدرة على التشخيص عند الفرد... أما حينما يمتلك الفرد الوعي الكافي والقدرة الكافية على التشخيص فإن إرادة

الإنسان تكون قادرة على التخلص من الظروف الاجتماعية مهما كان سلطانها وقوتها.

ويشير القرآن إلى منابع الوعي والفطرة والهداية الإلهية للإنسان في داخل نفسه وفي الخارج.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٢).

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(٣).

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٤).

وعليه فإن الله تعالى قد خلق للإنسان نوراً يمكنه من التشخيص والتمييز. وخلق له إرادة تمكنه من إتخاذ القرار، فلا يكون الفرد عنصراً جامداً ومقهوراً للمحيط الاجتماعي

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) البلد: ١٠.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

في حركة التاريخ.

على أننا لا نقصد بهذا الكلام أن الإنسان قادر على الحركة في مساحة المستحيل في التاريخ والمجتمع، وإنما نقصد بهذا الكلام الحركة في مساحة الممكنات في التاريخ والمجتمع، وهي مساحة واسعة جداً، وهي الأصل في دوائر حركة الإنسان.

٣ـ الرعاية الإلهية

وهو العامل الثالث لحركة التاريخ، ولا تحسبنّ عجلة التاريخ قادرة على الاستمرار في العمل لولا الرعاية الإلهية. ولا يمكن أن يستقر التاريخ على أساس (الحتمية العلية) و(العنصر الإنساني) فقط... وما أكثر ما أشرفت الحضارة الإنسانية على السقوط والانهيار الكامل لولا أنْ تتداركها (الرعاية الإلهية) في الوقت المناسب.

والرعاية الإلهية هنا شيء آخر غير السُّنن الإلهية التي تتحرك عادة في التاريخ... إنها سنن لا محالة ولكنها فوق هذه السنن الحتمية، ولها أيضاً أصول وقوانين، ولا تحصل إعتباطاً، إلا أنها من دائرة أُخرى غير دائرة السنن المعروفة. . بالإمكان أن نسميها سنن الرعاية الإلهية.

ولولا أنّ هذه الرعاية الإلهية تواكب حركة التاريخ لسقطت الحضارة البشرية منذ عهد طويل... ونحن عندما نتابع حركة التاريخ نشهد يد الله - تعالى - ورعايته للإنسان تواكب هذه المسيرة التاريخية، ولم تتخلّ عن رعاية الإنسان والمحافظة عليه وحمايته من السقوط طرفة عين... وكم من

مرة شهد التاريخ سقوطاً حتمياً لحضارة الإنسان على يد طغاة مجرمين من أمثال جنكيز وهولاكو وهتلر –على صعيد واسع جداً – لولا أن تدرك الرعاية الإلهية الإنسان في الوقت المناسب، وتنقذه من السقوط الحتمي، وكم من مرة يجرف الهوى، والفساد، والفوضى، البشرية إلى حضيض السقوط، لولا أن تدرك الرعاية الإلهية الإنسانية في اللحظة الأخيرة، وتنقذها من السقوط والهلاك، من دون أن تكون السنن الحتمية للتاريخ ووعي الإنسان وإرادته وحريّة قراره كافية لخلاص الإنسان وإنقاذه.

إن الحقيقة التي تكمن وراء ذلك كله أن حضارة الإنسان لا يمكن أن تقوم على دعامتين فقط: (إرادة الإنسان وسنن الله في التاريخ)، ومن دون وجود هذه الدعامة الثالثة (الرعاية الإلهية) تبقى الحضارة الإنسانية متأرجحة وقلقة ومعرضة للسقوط والانهيار.

ولو لم تكن لدينا شواهد وأمثلة ونماذج من خلال استعراض التاريخ الإنساني للرعاية الإلهية لكنا نحكم بحتمية وجود هذه الدعامة الثالثة للحضارة والمجتمع، نظراً لاستمرار الحضارة البشرية وخروجها من المآزق والمهالك الكثيرة

التي تعرضت لها هذه الحضارة في تاريخها الطويل... ولا نحتاج إلى دليل أكثر من ذلك لاكتشاف هذا العنصر الثالث في تقويم الحضارة والتاريخ.

ومن عجب أن هذا العنصر الثالث البالغ الأهمية يختفي بشكل عجيب في الدراسات العلمية التي تتناول تفسير التاريخ والحضارة الإنسانية، ويغيب عن عيون الكثيرين من الباحثين والعلماء، في هذا الحقل الحساس من حقول الدراسات الإنسانية.

ولا يحتاج الإنسان إلى كثير من العناء ليكتشف هذا الأصل الكبير والعامل الأساس في تقويم الحضارة والتاريخ. وبقليل من التأمل و البصيرة يستطيع الإنسان أن يلمس هذا الأصل في التاريخ والحضارة بشكل واضح.

رعاية اللّه في حياة الإنسان الشخصية

ولنبدأ في إلتماس هذه الرعاية الإلهية في حياة الناس الشخصية، حيث يعلم كل واحد منا تدخّل الرعاية الإلهية في حياته الشخصية، خارج دائرة الحتميات العلية وإرادته وعقله وتجاربه، ويلمس عن قرب أنه لولا أن تتدخل الرعاية الإلهية في حياته الشخصية لما نهض به عقله وإرادته وتجاربه

وقوانين الطبيعة والمجتمع، ولـو أن الله تعـالى يوكـل الإنسـان إلى نفسه لسقط في لحظة واحدة أمـام أول مزلـق مـن مزالـق الحيـاة الكثيـرة... ولكـن رعايـة الله تتـابع الإنسـان فـي حياتـه خطوة فخطوة، وتحفه بالحفظ، والتوفيق، والتسديد، والتأييد، بصورة غيبية، منها ما يشعر بهـا بصـورة محسوسـة وملموسـة، ومنها ما لا يشعر بها بصورة محسوسة، وهي الألطـاف الخفيـة لله تعالى التـي ترعـى الإنسـان مـن دون أن يحـس بهـا، وهـي كثيـرة ومتنوعـة، إذا كـان يخفـى علـى الإنسـان بعضـها، فـلا تخفى على الإنسان في إجمالها وكليتها.

وهذه الرعاية الإلهية تواكب الإنسان في مسيرة حياته عند كل مزلق من مزالق الحياة، وعلى كل شـفير يشـرف الإنسـان عنده على السقوط وكلما تتشابك أمامه الطرق ويلتـبس عليـه الحق والباطل... ولو أن الله – تعالى – وكل الإنسان إلى نفسـه وعقله وإرادته وتجاربه لما نهض به عقله وتجاربه بالتأكيد.

ولذلك ورد في الأدعية كثيراً هذه الفقرة: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

وورد في الصحيفة السـجادية «ولـو تكلنـي إلـى حـولي... لكان الحول عني معتزلا».

إن حول الإنسان وطوله وعقله وإرادته – وكل ذلك مما آتاه الله تعالى، – وكل قوانين الطبيعة والمجتمع –، وكله من خلق الله – لا ينهض بالإنسان إذا تخلت عنه رعاية الله الخاصة، وأوكلته إلى نفسه.

ستر الله

ومن أبرز مظاهر رعاية الله ستر الله، فما أكثر ما يتعرض الإنسان لأخطار مادية في جسمه فتدركه رعاية الله تعالى وتنقذه، وما أكثر ما يدرأ الله تعالى عن الإنسان الأخطار الحقيقية من حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر... يقول بعضهم إن الإنسان في كل دقيقة يواجه احتمال الموت والهلاك مرات عديدة.

وهذه الشواهد الملموسة كلها تدعونا إلى الإيمان بوجود عنصر ثالث في حياة الإنسان غير القوانين الطبيعية، والاجتماعية، والعقل، والإرادة، والتجربة، وهذا العنصر الثالث هو رعاية الله تعالى الخاصة بعباده.

التوفيق الإلهي

وقد ورد التعبير عن هذا العنصر الثالث في النصوص

الإسلامية بـ(التوفيق)، كما يقول أمير المـؤمنينعليه السلام «التوفيـق عناية» ، و«التوفيق عناية الرحمن»[١].

والتوفيق لا يأتي بمعنى تعطيل دور قانون العلية في الحياة فـي الطبيعـة والمجتمـع، ولا اسـتحداث قـوانين جديـدة فـي الطبيعة والمجتمع لخدمة الإنسان، وإنما يأتي بمعنـى «توجيـه الأسباب للإنسـان نحـو الخيـر مـن جانـب الله تعـالى»[٢]، فـإن قوانين الطبيعة والمجتمع تبقى فاعلة وحتمية، ومنهـا مـا يقـود الإنسان نحو الخير، ومنها ما يقود الإنسـان نحـو الشـر، وعلـى الإنسان أن يختار منها هـذا أو ذاك. وعليـه يتقـرر مصـيره فـي السعادة والشقاء كما ذكرنا. ولكن لـيس دائمـاً تتهيـأ للإنسـان الفرصة الكاملة لأسباب الخير في الطبيعـة والمجتمـع. فقـد لا تكون هذه الأسباب في متناوله وفي مقدوره. وقد تغيب عنه، ولا يهتدي إليها... وفي مثل هذه الحالات فإن الله – عزّوجـلّ – يأخذ بيد عبده إلى هذه الأسباب التي تقـوده إلـى السـعادة والخير.

---

(١) غرر الحكم للآمدي.

(٢) راجع سفينة البحار ٢: ٦٧٥ مادة وفق والتعبير قريب مما ذكرناه.

ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً أخذ بعنقه، فأدخله في هذا الأمر (الولاء والهداية) إدخالا»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً: «إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً وكل به ملكاً فأخذ بعضده فأدخله في هذا الأمر»[٢].

وتعبيرات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن التوفيق، كما في غرر الحكم للآمدي دقيقة ومعبرة عن هذه الحقيقة ومنها: «التوفيق قائد الصلاح» و«التوفيق رأس النجاح» و«التوفيق رأس السعادة» و«بالتوفيق تكون السعادة» و«لا قائد كالتوفيق» والسبب في ذلك كله واضح فان التوفيق الإلهي يقود الإنسان إلى أسباب الصلاح والنجاح والسعادة.

وما لم يوفق الله تعالى عبداً ويرد به خيراً فإنه لا ينال من أسباب الخير بجهده وعقله إلا القليل «لا ينفع إجتهاد بغير توفيق»، فإذا أراد الله تعالى به خيراً ووفقه وضع جهده في موضعه من أسباب النجاح والفلاح، فيكون جهده مثمراً.

يقول الإمام عليه السلام: «خير الاجتهاد ما قارنه التوفيق» وقد ورد

---

(١) بحار الأنوار ٥: ١٩٨، ح ١٧.

(٢) نفس المصدر ٥: ١٩٨، ح ١٨.

في الحديث أن «التوفيق أشرف الحظين»[١] ويقصد به حظ الإنسان من أسباب السعادة والخير التي ينالها بجهده وعقله وإمكاناته التي أعطاها الله تعالى إياه، وهو أحد الحظين وأقلهما شأناً، والحظ الآخر هو أن يهدي الله تعالى عبده لما يغيب عنه من أسباب الخير أو لما لا تناله يده من أسباب الخير، ويضعه في موضع أسباب السعادة والخير، وهذا هو الحظ الثاني وهو أشرفهما كما في الحديث.

ولا شك في أن (التوفيق) عامل غيبي من الخارج يضع الإنسان في مواضع الخير وأسبابه، وهو شيء آخر غير الإمكانات العقلية والفطرية والقوة التي أودعها الله تعالى في نفس الإنسان كما قلنا. فإن هذه الإمكانات لا تستطيع لوحدها أن تنهض بالإنسان، وتقوده إلى أسباب الخير وتجنّبه أسباب الشر، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً أعانه على صرف جهده وإمكاناته في مواضعها من أسباب الخير. وفي الحديث التالي إيضاح كاف لهذه الحقيقة:

«روي أن رجلا سأل الصادق عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله؟

---

(١) راجع ميزان الحكمة ٤: ٣٦٠٤.

ألست أنا مستطيعاً لما كلّفت؟

فقال له عليه السلام: ما الاستَطاعة عندك؟ قال: القوة على العمل.

قال له عليه السلام: قد أعطيت القوة، إن أُعطيت (المعونة).

قال له الرجل: فما المعونة؟ قال: التوفيق.

قال (الرجل): فلم إعطاء التوفيق؟

قال (الإمام): لو كنت موفقاً لكنت عاملا، وقد يكون الكافر أقوى منك ولا يعطى التوفيق، فلا يكون عاملا.

ثم قال عليه السلام: أخبرني عمن خلق فيك القوة؟

قال الرجل: الله تبارك وتعالى.

قال الصادق: هل تستطيع بتلك القوة دفع الضرر عن نفسك، وأخذ النفع إليها، بغير العون من الله تبارك وتعالى؟ قال: لا.

قال: فلم تنتحل ما لا تقدر عليه؟

ثم قال: أين أنت من قول العبد الصالح:

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ﴾»[1].

---

(١) بحار الأنوار ٥: ٤٢ والآية الكريمة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ من سورة هود: ٨٨.

وهذه الرواية تصنّف القوى العاملة والمؤثرة في حياة الإنسان إلى ثلاثة:

١- القوانين الطبيعية والاجتماعية (سنن الله) التي تقود الإنسان إلى الخير أو إلى الشر.

٢- القوى التي أودعها الله تعالى في الإنسان، والتي يستعملها الإنسان للوصول إلى هذه أو تلك من أسباب الخير أو الشر في الطبيعة والمجتمع.

٣- التوفيق والعون الإلهي الذي يهدي به الله تعالى عباده إلى أسباب الخير، ويعينهم عليها، ويأخذ بأيديهم إليها، لينالوا منها ما كان يغيب عنهم، أو ما كان تقصر أيديهم عنه. ومن دون هذا الأخير لا ينال شيئاً يذكر من الخير.

روى الكراجكي في الكنز قال: قال الصادق عليه السلام: ما كل من نوى شيئاً قدر عليه، ولا كل من قدر على شيء وفق له، ولا كل من وفق لشيء أصابه، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والإصابة فهنالك تمّت السعادة[1].

---

(١) بحار الأنوار ٥: ٢٠٩- ٢١٠.

النتائج التربوية للإحساس بالتوفيق الإلهي

وعندما يعي الإنسان أهمية عامل التوفيق الإلهي، في بناء حياته، وتقرير مصيره، وهدايته، وسداده، ونجاحه، وفلاحه، ويعي عجزه كإنسان من أن يحقق في حياته شيئاً من ذلك بقواه وإمكاناته الذاتية التي أودعها الله تعالى فيه... ينفعه هذا الإحساس من الناحية التربوية في أمرين أساسيين:

١- يكفكف في نفسه غلواء الغرور والزهو، عندما يفتح الله - تعالى - له أبواب الرحمة، فلا يناله الغرور، ولا يصدّه الزهو الباطل.

وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أن أيوب عليه السلام قال: يا رب ما سألتك شيئاً من الدنيا قط، وداخله شيء (من الغرور والزهو الروحي بالزهد والاستغناء عن متاع الحياة الدنيا).

فأقبلت إليه سُحَابة حتى نادته: يا أيّوب من وفقك لذلك؟

قال: أنت يا رب[1].

وما أجمل جواب العبد الصالح شعيب عليه السلام لقومه عندما أنكروا عليه دعوته وقالوا له:

---

(١) بحار الأنوار ١٢: ٣٥٣.

﴿**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾(١).

إنك لتقرأ هذا الحوار في القرآن فتشعر بالأنانية الثقيلة في كلام قوم شعيب﴿**مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾ «أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء» «ثم الاستخفاف والاستهزاء»﴿**أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ**﴾، ﴿**إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾!!

ولنقرأ الآن جواب شعيب:

﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾(٢).

ونقرأ هذا الجواب، فلا تكاد تحس لهذا العبد الصالح

---

(١) هود: ٨٧.

(٢) هود: ٨٨.

بظل في هذا الحوار.

﴿**بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**﴾: (بيّنة) وليس تعصُباً لما يعبد الآباء. و(من ربي)، وليس من صنعي، ولا مما انتهيت إليه بفكري وجهدي ﴿**وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا**﴾: رزقني الله من لدنه، ومن عنده رزقاً حسناً مباركاً... نقرأ هذا الكلام فلا نحسّ بشعيب، ولا بظل له. ثم نلتقي بشعيب فجأة يقول: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ**﴾... وهذه الإرادة منه، ولكنها من التوفيق والرزق الحسن الذي رزقه الله.

وفي إطار الإصلاح والهدى... ومع ذلك يسرع فيتدارك هذه (الأنا) مباشرة بـ ﴿**مَا اسْتَطَعْتُ**﴾، بحدود قدرته وإستطاعته وهي محدودة... ثمَّ كأنه لا يجد في هذا التحديد والتحجيم (للأنا) مايبغي من إظهار شأن الله عزّشأنه ونكران الذات، فيتدارك الأمر مرة ثانية، ومباشرة ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ**﴾: فما يصنعه من فعل، ويقدم عليه من أمر في الإصلاح لا يتم منه شيء إلاّ بتوفيق من الله، وليس له في ذلك أي شأن، والجملة – كما يقول أهل العربية – تفيد الحصر، ونفي أي شيء له في هذا الأمر وحصر الأمر كله في الله تعالى. ثم

يشدّد مرة أُخرى على هذا الإحساس بقوله ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾.

ولا يتأتّى للأنا أن تختفي تماماً عن المسرح، ويتأكد عند صاحبها الإحساس بحضور الله، ومعية الله، وحول الله، وسلطانه، وأن ليس له من حول وقوة إلا بالله. إلا عندما يستشعر معية الله تعالى له وتوفيقه إياه بمثل هذه الدرجة من البصيرة والرؤية.

٢- وهذا الإحساس ينفع الإنسان ثانياً في أن يضع كل ثقته ورجائه في الله، ويقطع كل أمل ورجاء من عند غير الله.

روى ثقة الإسلام الكليني رحمه الله في الكافي عن أبي جميلة قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام يقول: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى عليه السلام ذهب يقتبس ناراً، فانصرف إليهم وهو نبي مرسل[١].

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة التوفيق في حياة الإنسان ظاهرة واسعة وممتدة. وأي إنسان إذا أنعم الله عليه بالبصيرة

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٣١-٣٢ وفروع الكافي ١: ٣٥١ وفيه فإن موسى ذهب ليقتبس لأهله ناراً.

وأنعم النظر فلا يكاد تخفى عليه لمسات يد الله - تعالى - في حياته في سرائه وضرائه وفي الشدة والرخاء، ولا تغيب عنه رعاية الله، ولا يتخلى عنه التوفيق الإلهي، في حياته المادية وحياته المعنوية وفي حركته وعمله.

مقارنة بين ما يطمح إليه الإنسان وبين توفيق الله للإنسان

وإذا قارننا بين ما يطمح إليه الإنسان في تفكيره وتخطيطه لحياته، وما يؤول إليه أمر حياته، بتوفيق الله، وتأييده، والفارق بين ما كان يريد وما أراد الله - تعالى - له تنكشف لنا ضخامة دور التوفيق في حياته، وهذا يذكّرنا بما كان يريد المسلمون من غنيمة باردة عندما خرجوا إلى بدر ليرجعوا بأموال قريش وبين ما أراد الله - تعالى - لهم من سلوك طريق ذات الشوكة.

فلقد كان أكبر همّ المسلمين يومئذ أن يرجعوا بتجارة قريش موفورين، وكانوا يكرهون أشد الكره لقاء قريش والقتال معهم، وأراد الله - تعالى - لهم أن يلاقوا قريشاً في معركة حاسمة، يعودون منها أشدّاء أقوياء، سادة قوّامين للحق، يرفعون كلمة الله على وجه الأرض في مشارقها ومغاربها.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

إن الإنسان قد يريد الوصول إلى شيء من معصية الله، فيخرج إليه فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى الطاعة والجنة.

وقد يسلك طريقاً إلى الراحة والعافية وإيثار الحياة الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى ذات الشدة والى الجنّة.

وقد يسلك طريقاً إلى متاع قريب من متاع الدنيا، فيسلك الله تعالى به طريقاً إلى رضوانه وقربه.

وقد يخرج من بيته في مُهمّة، ولا يعلم ماذا يصنع وأين يذهب، وأي باب يطرق، ومن أي وجه يطلب حاجته، فيأخذ الله تعالى بيده ويسلك به الطريق إلى حاجته خطوة خطوة راشداً مهدّياً.

---

(١) الأنفال: ٧.

التوفيقات الربانية في حياة الدعاة

إن الداعية يجد أمامه في الدعوة إلى الله طريقاً صعباً وعراً وعقبات صعبة، وأعداءَ جبابرة، فيحار ماذا يصنع، ويكاد يركن في لحظة من لحظات الضعف إلى اليأس والخوف، فيأخذ الله بيده ويجتاز به هذه العقبات، عقبة، عقبة، ويَمُرّ به على مراحل الطريق الصعبة، مرحلة، مرحلة، ولا يفارقه في مواجهة الأخطار، وفي معاناة العمل الطويلة، وعند منعطفات الطريق الصعبة، وفي إجتياز العقبات. يلمس خلالها يد الله تعالى، ترافقه، وترعاه، وعين الله – تعالى – تبصره، وتعطف عليه.

وقد كان يقع أحدنا – من حملة الدعوة إلى الله – في قبضة جلاوزة الطاغوت في حقدهم، ووحشيتهم المعروفة، فتضعف نفسه عندما يجد نفسه وحيداً في قبضة السفاكين، يعملون فيه ما يشاؤون، لينتزعوا منه ما يشاؤون، ويخشى أن تضعف مقاومته أمام التعذيب، ويبوح بما يحرم عليه أن يبوح، فيخسر دينه ودنياه، فيملأ الله – تعالى – نفسه ثقة، ويَهبُ جسده قوة، ويجعل في نفس أعدائه الضعف والجبن، ويجتاز به الزنزانات، وحفلات التعذيب والتحقيق، ومراحل

السجن والعذاب، ويؤنس وحشته في وحشة الزنزانات، ويملأ دنياه الصغيرة بين جدران الزنزانة الموحشة بما لا حد له من اليقين، والإيمان، والثقة بالله، والصبر، وإبتغاء رضوان الله ورحمته.

وإن الداعية ليفر بدينه فيخاف على أسرته وعائلته أن تصيبهم ضراء الجوع والخوف فيهيؤ الله تعالى لهم من المؤمنين من يقاسمونهم لقمة خبزهم، ويؤثرونهم على أهلهم.

لمسات التوفيق الإلهي للدعاة من القرآن

ولنرجع إلى القرآن لنلمس مواضع توفيق الله وتأييده لعباده الصالحين ولحملة دعوته ورسالته وتواكب هذه الرعاية الإلهية المؤمنين في مراحل الحياة الصعبة، وأمام بطش الجبابرة والطغاة. فها هي أم موسى تضع وليدها عليه السلام، فتخاف أن يقتله جلاوزة فرعون، فيضعف فؤادها لذلك، فيأمرها الله تعالى أن تقذف به في البحر وسط أمواجه العاتية الغاضبة، ليرده إليها من داخل قصر فرعون، ومن قبضة الطاغية، فتمتثل الأم خائفة وجلة:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ
عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ
* وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ
عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ *
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن
رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا
عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ
تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ

حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

سبحانك اللهم! من رب قادرٌ متعال، رؤوف، رحيمٌ تنقذ هذا الوليد الرضيع من بطش فرعون الذي آلى على نفسه أن يقتل كل وليد لبني إسرائيل، ومن وسط عباب أمواج البحر ترافقه رعايتك عبر أمواج البحر، وعبر قصر الطاغية، وبطشه، ويعود الطفل الرضيع إلى أمه، كي تقر به عينها، ولتعلم أن وعد الله حق، وتواكبه رعايتك حتى يبلغ أشده، ويستوي، وتؤتيه من لدنك حكماً وعلماً، وتؤتيه الحكم والنبوة في جانب الطور وهو يبحث عن قبس من النار لأهله في ليلة ظلماء باردة، سبحانك، سبحانك، سبحانك.

يبحث عن جذوة من النار لأهله، في ليلة ظلماء باردة، وموحشة فإذا النداء المبارك الذي يملأ قلبه شوقاً، وخوفاً، وإيماناً، ويقيناً ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾.

﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم**

---

(١) القصص: ٨-١٥.

مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ويضعف فؤاد موسىعليه السلام أن يضطلع بهذه الدعوة الكبيرة (النبوة) فيؤتيه الله تعالى برهانين كبيرين:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2].

إن حياة رسول الله وكليمه موسىعليه السلام من ولادته إلى رسالته والى أن نصره الله تعالى على فرعون وجنده، وأنجاه

---

(١) القصص: ٢٩-٣٠.

(٢) القصص: ٣١-٣٢.

من اليم، وغرق فرعون وجنده فيه إلى نهاية حياته سلسلة متوالية ومتعاقبة من تأييد الله تعالى، وتوفيقه، ورعايته، تشعر الإنسان بيد الله تعالى تواكب هذا العبد الصالح، وترافقه في مختلف مراحل حياته الصعبة.

وليس موسى عليه السلام بدعاً من الرسل، ولا يختلف الأمر في الأنبياء، والرسل عن سائر الناس من حملة الدعوة والرسالة.

فـ «ما أمر الله بشيء إلا وأعانَ عليه». كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ**﴾(٢).

الذين يلمسون يد الله فيما ينالهم من التوفيق

وما أكثر ما يلتقي الناس، وسيّما الدعاة العاملون منهم

---

(١) محمد: ٧.

(٢) غافر: ٥١.

تأييد الله تعالى في حياتهم، وتوفيقه، وتسديده لهم ويلمسون يد الله عن قرب، دون أن يعرفوها.

إن التوفيق الإلهي سُنَّة إلهية عامة لكل الناس بدرجات مختلفة، إلا الذين يسلبهم الله التوفيق. ومن دون هذا الأصل، لا يمكن أن تستقيم حياة الناس... ولكن قليلا من الناس يلمسون يد الله في حياتهم، ويعرفونها، وأولئك هم ذوو البصائر من عباد الله. وتلك خسارة حقيقية في عالم (المعرفة): أن ينعم الله على عبد بالتوفيق في حياته، في السراء والضراء، وعند كل خطر، ومزلق من مزالق الحياة، وفي المعاناة، والراحة، والشدة، ثم لا يعرف يد الله في حياته، ولا يعرف رعايته له، ولا يشعر بمعية الله تعالى له في حياته، وما فتح الله تعالى عليه من أبواب رحمته ومعرفته، فيقف الإنسان دون هذا الباب، لا يهتدي إلى اليد الرحيمة التي ترافقه، وتعطف عليه، وتشده، وتعضده، وتفتح عليه مغاليق أبواب الحياة، وتيّسر له ما أغلق عليه من مسائل الحياة، وتؤدبه وتهذبه.

التوفيق باب من أبواب التوحيد

و(التوفيق) من الأبواب الواسعة لمعرفة الله، والإنسان يهتدي إلى الله من أبواب كثيرة أهمّها ثلاثة:

١- الفطرة

٢- والعقل (الأدلة العقلية)

٣- والتعامل مع الله تعالى.

والأخير (التعامل مع الله) باب واسع للمعرفة يلجه ذوو البصائر من الناس، ويهب الإنسان من الإيمان، والثقة، والطمأنينة، والاتكال ما لا تهبه الفطرة ولا العقل.

فإن الإنسان من خلال التعامل مع الله (الأخذ والعطاء)، أو التجارة مع الله، كما يقول القرآن الكريم[١]، يشعر شعوراً قوياً برحمة الله، وعطائه، وبقرب الله تعالى منه ومعيته له... ومن خلال مراقبة مواقع تأييد الله تعالى وتوفيقه له ومعيته له في السراء والضراء وحفظه إياه من المهالك والمزالق وتسديده له، وهي كثيرة، يشعر بصورة قوية وعميقة بمعية الله.

سنن الله في التوفيق

وقبل أن نفارق الحديث عن (التوفيق) أحب أن أختم الحديث عن أسباب التوفيق وقوانينه في حياة الإنسان. .

---

(١) (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب الله).

إن للتوفيق الإلهي في حياة الإنسان أسباباً، وقوانين، وأصولا، وليس أمراً عفوياً في حياة الناس، فمن أنعم الله تعالى عليه بالتوفيق لابد أن يكون أهلا وموضعاً لهذه الرحمة الإلهية، ومن سلب الله تعالى عنه التوفيق، ووكله إلى نفسه لابد أن يكون هو ممن أضاع هذه الفرصة على نفسه، ولم يكن أهلا لنزول رحمة الله - تعالى - فلم يعد بعد موضعاً لنزول هذه الرحمة.

فليس في رحمة الله تعالى شحّ أو بخل، ولا نفاد لخزائن رحمته، وإنما ينعم من الناس من ينعم بالتوفيق الإلهي، ويحرم من يحرم من الناس من توفيق الله ضمن سنن وقوانين لله. فمن حل في منازل رحمة الله شملته الرحمة الإلهية، ومن أعرض عنها وغاب عنها حُرم منها. وتختلف درجات الناس وحظوظهم من توفيق الله على قدر استحقاقهم وأهليتهم وسعة آنائهم، ضمن هذه السنن.

والتوفيق من رحمة الله تعالى، تنزل على عباده من غير حساب، ويحرم الذين خسروا أنفسهم من هذه الرحمة الإلهية رأساً، وينال المؤمنون بعد ذلك من هذه الرحمة الربانية على قدر ما يتسع لها إناء نفوسهم.

أرأيت المطر ينزل من السماء على الأرض، غزيراً، فلا تنال منه الصخرة المرتفعة الناتئة شيئاً، ولا تنال منه الأرض الصلبة إلا القليل، وتمتص الأرض الهشة الكثير منه، وتحتفظ بكميات كبيرة منه في جوفها، ثم تعطي ثماراً طيبة وشهيّة. إن هذا الاختلاف ليس اختلافاً في حجم المطر النازل من السماء، وإنما ينبع من اختلاف الأراضي في قبول المطر وفي الخصوبة.

وكذلك أواني النفوس تختلف في رفض رحمة الله النازلة وقبولها، كما تختلف في درجة قبولها لرحمة الله تعالى.

وهذا الاختلاف يتم بفعل الإنسان وإرادته.

وليس في أصل الخلقة حالة انغلاق على رحمة الله تعالى، فإذا أعرض عن الله هبطت درجة استعداده لاستقبال رحمة الله، وإذا أصر على هذا الإعراض يتضاءل استعداده لاستقبال رحمة الله تعالى، أكثر فأكثر، فإذا استمر على هذه الحالة من الإعراض تنعدم قابليته لاستقبال رحمة الله، بصورة نهائية. وبالعكس كلما يقبل على الله تعالى يتسع إناء نفسه لاستقبال رحمة الله، حتى يبلغ مرحلة الصديقين والأولياء من عباد الله.

و(التوفيق) من هذه الرحمة الإلهية الهابطة على العباد،

ويتبع هذه السنة الإلهية. فكلما ازداد الإنسان إقبالا على الله تعالى زاد حظه من توفيق الله تعالى ورعايته.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان هذه السنة الإلهية في علاقة التوفيق بالإقبال على الله والدين:

«كما أن الجسم والظل لا يفترقان كذلك التوفيق والدين لا يفترقان»[1]

وهذه المعادلة القائمة بين علاقة الله تعالى بعبده، وعلاقة العبد بربه يحدده قوله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

وفي مقابل (التوفيق) الخذلان، وهو أن يتخلى الله تعالى عن عبده، ويكله إلى نفسه، والى أهوائه، وشهواته، فيستفرد به الشيطان، والهوى، والطاغوت، في ساحة الصراع الداخلي والخارجي، وليس ثمَة من ينصره أمام العدو من داخل نفسه ومن الخارج:

---

(١) غرر الحكم.

(٢) البقرة: ١٥٢.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾(١).

إن الإنسان ليقف في ساحة الصراع الملتهبة في مواجهة أعدائه، من داخل نفسه (الهوى)، ومن الخارج (الطاغوت)، يتمتع بمعية الله تعالى، وتأييده، وتوفيقه، فلن يغلبه الشيطان ولا الهوى، ولا الطاغوت، ما كان الله معه، وما كانت يد الله تؤيده وتسدده، فإذا تخلى عنه الله عزّوجلّ، وأحاله إلى نفسه، وأوكله إليها، استفرد به أعداؤه ولم يجد ناصراً ينصره، وبان عجزه وضعفه عن المواجهة.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾.

والإنسان هو السبب في هذا الخذلان الإلهي له بإعراضه عن الله، وإقباله على الهوى والطاغوت.

---

(١) آل عمران: ١٦٠.

الفهرس